وقت مستقطع !

إنه انطوائي جداً! كان كذلك طيلة عمره؛ ربما لأنه أبكم! وجدت صعوبة طيلة حياتي في التواصل معه، حتى قبل أن يفقد صوته! اتهمني الجميع بأنني السبب في ذلك! هل كنت السبب في شقاوته؟ هل قلت له تسلق خزانة المطبخ وأمسك بزجاجة سائل تبييض الملابس الحارق واشربها؟! كان دائماً منقطعاً عنا، مُنجذباً بشدة للأفلام والبرامج الأمريكية، يتابعها بشغف، ويقلِّدها بجسده وعقله، بل وحتى روحه! ربما كان ينظر لجمال بلادهم وبيوتهم، ربما لم يعجبه حالنا ـ رغم أننا أفضل من سوانا.

لم يكن ينفق مصروفه اليومي حتى لو مات جوعاً! كان يجمعه ويجمعه حتى يتوفر له ثمن شيء يظهر في الأفلام الأمريكية: اشترى القبّعة والمسدسات والمهماز والحذاء ذا الرقبة، اشترى آلات موسيقى الجاز، لم يعد يرتدي سوى "الفانلة البيضاء والسروال الجينز"، يتابع مباريات البيسبول والركبي وهوكي الجليد وكرة السلة! حتى لقد وضع سلة في فناء بيتنا أقام عموداً خصيصاً لها! يظل يكلمني عن أبطالها؛ يذكرهم اسماً ..اسماً! يُفطر على الكورن فليكس ويشتري الهامبورجر والبيتزا كلما تيسّر! لا تفارق البيبسي والكوكاكولا يده، يستمع للراب ويرقص الروك أند رول، أكاد أُقسِم أنه لو نطق لما خرج من لسانه سوى الإنجليزية!

رأيت الفرح يملأ وجهه يوم دخل الأمريكان بلدنا!! أشار لي أننا قد انتهينا من عصر الديكتاتورية .. لو أطلقت نفسي حينها لخنقته بيديّ، لو أخرجت ما بصدري صراخاً حينها لفقدت نطقي مثله، لكن هذا ما حدث فعلاً: أردت أن أصرخ وأصرخ وأصرخ، لكنّ صوتي لم يخرج! ظللت مبهوتاً أمام ابتسامته أتهِم الحقيقة بأنها كابوسٌ سأُفيق منه؛ لازلت أحيا على هذه الفكرة .. أرفض الواقع؟ نعم أرفضه! وسأظل أرفضه: لا لم يحتل الأمريكان بلدي .. لا لم يُقتل كل أولئك النساء والشيوخ والأطفال .. لا، لا توجد سيارات مفخخة ولا عمليات انتحارية لا يموت فيها سوى أهل بلدي .. لا لم أفقد خالي وأبناءه جميعاً منذ عام في انفجار سيارة مفخخة وهم في السوق .. لا .. لا هذا لم يحدث!! لازلت أخرج وأدخل .. أشتري وأبيع .. أقابل أصحابي .. أحب وأخطب! نعم سأخطب! سأتجرأ وأفعل.

رأيتها حين قدِمَتْ مع والدها ووالدتها ليخطبوا أختي الصغرى لجاسم .. جاسم أكبر مني، لكن من يجد عريساً لابنتِهِ هذه الأيام؟ كل ما أحتاجه هو بعض الجرأة فقط لأكلِّمه! أشار عليّ كاظم بأن آتي معه وأصحابه ـ المجانين مثله ـ إلى حفلة "الباربيكيو" التي سيقيمونها في الخلاء مع آلات موسيقى الجاز؛ وأن أدعوه إليها، أشار لي: هناك سيكون الجو مناسباً لمفاتحته في الخِطبة بعد تعميق صداقتنا .. لم تعجبني الفكرة أبداً! ثم ما به كاظم؟! أصبح أكثر انفتاحاً وسعادة، أصبح لا يكف عن تحريك يديه بالكلمات، ولا عن إرسال الابتسامات! أصبحتُ أنا الأبكم! بل صرتُ انطوائياً كذلك!

دعاه هو لحضور حفلته مع أصحابه و أصبح ذهابي معهم فرصة إما أن أنتهزها أو أُضيِّعها ! بِتُّ أخاف من كاظم ، حتى لقد خشيتُ أن يخطبها هو لنفسه ! هل سيوافق جاسم؟ من يجد لأخته عريساً هذه الأيام حتى لو كان أبكم؟

حين خرجت مع كاظم في سيارة والدنا التي نجلب بها البضائع، كنت أتلفت حولي، وهو يُدخِل آلته الموسيقية فيها، خِفتُ أن تلمحنا إحدى جاراتنا الثكالى، حين وصل الجميع ونصبنا خيمتنا، نظر لها باشمئزاز، لو استطاع إقامة كوخ خشبي لفعل! ملأت رائحة الشواء المكان، وأقاموا عموداً لكرة السلة، بدءوا في العزف والضجيج، مرّت فوقنا طائرة أمريكية، انقبض قلبي، لكنهم لوحوا لها جميعاً، غادرت الأفق ثم عادت

مُنقضّة!! ما بهم، هل اعتقدوا المشواة سلاحاً؟ هل ظنوا أن الخيمة بها "أر بي جي"؟ اندفعت نحو الخيمة لأُسقِطها، فيما اندفع الباقون نحوها ذهولاً وخوفاً، ماذا اعتقدوا، هل ستحميهم خيمة؟!

اشتعلت النار في جسدي الممزق في لمح البصر، لم أَرَ مَنْ حولي، فقط رأيتُ أخي كاظم يدمي ولازال يحتفظ بأنفاسه وبعض قوّتِه، فيمَ لم يبقَ لي سوى عينين تجولان في كل أخطاء الماضي .. كاظم: ربما أكون السبب فعلاً في بُكمه! كانت عيناي تستعِدّان لمتابعة روحي وهي تترك بقايا جسدي وقد تراءت لي صور أمي وأبي وأختي وأخت جاسم وقد فقدوا من كان يجب عليهم حمايتهم، وحين تابعتْ عيناي روحي إلى السماء كان آخر ما رأته كاظم وقد استجمع قواه وركض ناحية الطائرة التي أرسلت هديتها الثانية إليه؛ كان يرفع يديه نحوها؛ يبسُطُ يده اليسرى مقلوبةً كسقف وينزل بها على أطراف أصابع يده اليمنى المنتصبة عدة مرات وهو يصرخ : آ .. آآآآ .. آآآآآآآآآآآآآآ !!!